التنظيم السرى

التنظيم السرى

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

التنظيم السرى

فى ركن النادى الذى يجمعنا للسمر تنطلق الآراء كالمقرقعات . لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزقها جدلا . وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتى تبح منا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم . لا يشترك فى همومنا الجدية برأى أو بلا أو بنعم . قد يثرثر فى الأمور العابرة ولكنه عند الجد يلوذ بالصمت . يغيب عنا بنظرة شاردة . يتخذ من هامش الحياة وطنا . على ذلك لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره المتأصلة فى منابتنا . ويوما اتصل بى تليفونيا فى الديوان وقال لى :

ـ أود مقابلتك غدا صباحا فى محل توت عنخ آمون .

فوافقت من فورى ، وفى الموعد جلست انتظره . وهلَّ علىَّ دون تأخير ، فرحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد ، وهو يرنو إلىَّ جادا حتى خيل إلىَّ أنه استعار شخصية جديدة تماما . وقرب رأسه منى وقال :

ـ فكر قبل أن تتكلم ، فالكلمة هنا ارتباط أبدى .

فأثار اهتمامى لدرجة لم أتوقعها، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح . قال :

ـ لم يكن مفر من هذا التحذير، ثم أدخل فى الموضوع رأسا!

فقلت واهتمامى يتصاعد :

ـ أدخل .

فكور قبضته الضخمة وتساءل :

ـ آنست منك رغبة فى العمل؟

فلمحت أول بصيص نور، وسألته فى دهشة :

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ من متابعتى للمناقشات!

فقلت بدهشة أكثر :

ـ حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا!

فابتسم ولم ينبس فقلت :

ـ هات ما عندك .

فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألنى!

ـ أتعنى ما تقول حقا؟

فقلت بصدق :

ـ كل كلمة، كل كلمة!

ـ إذن فأنت ترغب فى العمل؟

أدركت مغزى تحذيره ولكن وعائى كان طافحا بما فيه، فقلت مندفعا إلى مصيرى :

ـ أجل .

ـ العمل ـ بخلاف الكلام ـ باهظ التكاليف .

فقلت بتحد :

ـ أدرك ذلك تماما .

فقال ببطء :

ـ الندم فيما بعد غير مجد .

ـ أعتقد ذلك .

ـ والتراجع يعنى الموت .

ـ طبعا . . طبعا .

فقال بارتياح :

ـ صدقنى حدسى .

فقلت وأنا أغالب انفعالاتى الداخلية .

ـ يا لك من داهية .

فقال كالمعتذر :

ـ هى الحياة .

فقلت بشىء من الحدة :

ـ أو هو الموت ، ليفعل الله ما يشاء .

ـ بداية طيبة .

فقلت بشوق :

ـ هات ما عندك .

فقال بسرعة :

ـ ما لدى قليل ، أقل مما نتصور ، أسرة مكونة منى وأربعة آخرين ستعرفها مساء ، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصا أتلقى منه الأوامر .

ـ ولكن الأسرة وحدة فى كل ، وعلى رأس الكل رئيس ، ماذا تعرف عن ذلك؟

فقال ببساطة :

ـ لا شىء . .

فتساءلت فى حيرة :

ـ ونظل نعمل فى الأسرة يحيط بنا الظلام؟

ـ ربما ، وربما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى .

ـ ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى؟

ـ علمى علمك ، المهم العمل والهدف؟

وتفحصنى بنظرة ثاقبة وقال :

ـ إنهم أدرى بما يحقق الأمان والنجاح .

ومر بى نهار لم يمر بى مثله فى حياتى . كمن يبدل لحمه ودمه وخلاياه وروحه . كمن يولد فى دنيا جديدة ذات قوانين جديدة . كمن يودع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت . لم يبق لى من الماضى إلا الاسم وحتى هذا سرعان ما يتغير . وفى المساء انعقد أول اجتماع للأسرة فى بيت صغير بمصر القديمة . كنا خمسة ، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ «ا» . لم لا؟ لقد أصبحنا رموزا لتحقيق أهداف . وجلس على رأس المائدة ينقل عينيه بيننا ، مكتسيا مهابة جديدة وتأثيرا نافذا . قال :

ـ أرحب بكم فى أسرتنا التى جمعتنا على الخير ، هى التى أخرجتنا من العبودية وطهرتنا من عبادة الأصنام ، فلنجعل من الكمال زينتنا ومن الحب رابطتنا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل فى نطاق ما نعرف ولا نسأل عما لا نعرف ـ وأحذروا الخطأ فلا خطأ يمر بلا عقاب .

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل ، أو لمعرفة الأجوبة عن بعض أسئلة عاجلة ، ومناقشة الاقتراحات . وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر «ا» على إعجابى بعقله الراجح وحدسه الصادق وخلقه المتين مع قوته الجسدية الخارقة كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة ، وإن ساءتنى جديته الصارمة التى تضن بالابتسامة فضلا عن الدعابة . وعزيت نفسى قائلا إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذى يضع ولا شك الرجل المناسب فى المكان المناسب ، والذى

تتسلل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك، حتى إن «ا» نفسه لا يعرف من ذاك الجهاز المعقد إلا فردا واحدا. وقد رأيته يلوذ بالصمت فى أعقاب مناقشة ثقيلة جرت فى أحد الاجتماعات فقلت بعفوية:

- ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأسر بالرئيس الأعلى فى اجتماعات دورية لنطمئن على سير الأمور؟

فاستيقظ من صمته راميا إياى بنظرة صلبة ثم قال:

- ارتكبت عدة أخطاء دفعة واحدة!

وراح يعدد على أصابعه قائلا:

- قطعت علىَّ تفكيرى، تدخلت فيما لا يعنيك، خالفت وصية من الوصايا!

فهالنى الأمر وقلت معتذرا:

- إنى آسف يا سيدى.

- لابد من العقاب، وإنى أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرا كاملا ابتداء من هذه الساعة!

وصدمنى الحكم ولكنى لم أنكص عن تنفيذه - رغم ثقله - بوازع من ضميرى. على أننا كنا نشعر فى الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة. هذا ما تطوعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة فى تغيير الكون. حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن

الصفوة المختارة بدقة رسم خطوطها ذلك الرئيس الأعلى الذى صار ـ هو وجهازه ـ أسطورة يتحدث عنها الناس فى كل مكان، وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكل سبيل انطلاقا من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرية المثيرة. وما أدرى يوما ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و«ا» ينظر ويسأل :

ـ أين القلم الرصاص الذى وجدته أمامك فى الجلسة السابقة؟

فقلت ببراءة :

ـ لعلى أخذته معى .

فسأل ببرود :

ـ من أين علمت أنه وزع للامتلاك؟

فقلت فى استياء :

ـ سأرده فى المرة القادمة أو أبتاع بديلا عنه .

فقال ببرود أشد :

ـ نحن نعتبر ذلك نوعا من السرقة!

فقلت بغضب :

ـ لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف نتهم بسرقة قلم رصاص؟

فقال بهدوء هو أشد من الحدة :

ـ لا تمن علينا بالتضحية، فإنك لا تضحى من أجلنا ولكننا

نضحى جميعا من أجل الهدف وقد حكمت عليك بألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر!

ركبنى هم ثقيل فذهبت إلى مطعم «فلسطين» بالسكة الجديدة لتناول العشاء. وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة. لاحظت رغم همى أنها لم تطلب شيئا ولم يقترب منها الجرسون. ولاحظت أيضا أنها تنظر نحوى بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة هوى. على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر، بل والجوع أيضا. قالت لى عيناها: «أدعونى للعشاء من فضلك». ورق قلبى لها فابتسمت وسرعان ما ردت الابتسامة بأخرى مبتذلة. قلت إنها مازالت تشق طريقها الوعرة، وأشرت إلى المقعد الخالى أمامى فانتقلت إليه دون تردد. تناولنا عشاء من المكرونة والخبز الجاف فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء. حل الارتياح مكان التوتر فى وجهها، وتبادلنا الابتسام دون تعارف، ثم سألتها لأبدد الصمت:

- من هنا؟

فقالت بنبرة ذات معنى.

- مسكنى فوق المطعم.

لم تكن فى رأسى خطة نهائية فنظرت فى الساعة فسألتنى:

- نقوم؟

فاستسلمت بلا حماس وبلا فتور فتأبطت ذراعى ومضت بى نحو مدخل المبنى فى عطفة خلفية. لست من مدمنى ذلك ولا من

الهواة ولكنها تعرض لعازب . وكانت رقيقة وثرثارة وغير محنكة فدار حديثها حول ضجيج العاصمة . وسألتنى :

ـ ما ليدك اليسرى؟

فقلت بامتعاض : روماتيزم خفيف .

فقالت مجاملة :

ـ ولكنك فى عز الشباب .

فقلت بضيق :

ـ أمراض عصرنا لا تفرق بين شيخ وشاب .

وغادرتها وهى تقول :

ـ لتكن أولى الزيارات لا آخرها .

وصادفتنى متاعب متلاحقة فى البيت والديوان لعدم استعمال يدى اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين . وتمخض اجتماع الأسرة التالى عن مكدرات جديدة لم تكن فى الحسبان ، إذ التفت «ا» نحوى قائلا :

ـ ما زلت ماضيا فى طريق الضلال!

فنظرت إليه مبهوتا فقال :

ـ الزنا بعد السرقة .

فالتهبت وجنتاى وغضضت بصرى ، فقال :

ـ كأنك لا تدرك خطورة زلتك؟!

فقلت باستماتة:

ـ هفوة شخصية لا تمس سلوكى العام.

ـ هراء، المرأة أشد خطورة من الشرطة.

فقلت مدافعا:

ـ الزواج عسير جدا فى هذه الأيام.

فقال ببرود:

ـ فى الهدف ما يغنى ويسلى عن سواه.

وواصل عقب صمت قصير:

ـ إنك كثير الجدل فمتى تتعلم الطاعة؟

وفكر قليلا ثم قال:

ـ مراعاة لظروفك سأكتفى بتغريمك مائة جنيه تؤديها على أقساط!

وجدتنى فى مأزق. كدت أندم على فكرة التطوع نفسها ولكن لم يغب عنى أن التراجع الآن يعنى الموت. وتعزيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء وتنفيذ ما أكلف به من أعمال. وتخيلت رئيسنا الأعلى ـ قياسا على «ا» ـ فى صورة عملاقة جبارة جديرة حقا بالإجلال والخوف. ومازج شوقى إلى معرفته رغبة فى البقاء بعيدا عن بابه. ولم أخطىء بعد ذلك، وتقدمت فى الدرس

والتدريب تقدما محمودا سمعت من أجله الثناء تلو الثناء، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات. وفى ختام اجتماع هام للأسرة، استبقانى «ا»، ووضع أمامى مظروفا مغلقا وقال:

ـ تسافر إلى (. . .) وتقابل (. . .) الكاتب بالمحكمة وتسلمه الرسالة خفية وتعمل بما يشير به عليك.

كنت تدربت تماما على وسائل معرفة المكان ومواعيد القطارات والاتصالات الخفية. وشرعت فى العمل خطوة فخطوة حتى سلمت الرسالة للرجل. وأشار على بالنزول فى فندق بالبلدة والانتظار. وفى الصباح جاءتنى سيارة فورد قديمة، ودعانى السائق إلى الجلوس إلى جانبه وانطلق بها بلا تعارف أو كلام. وفى وسط الطريق قال:

ـ فى الصندوق الخلفى حقيبة جلدية.

ووقف على مبعدة من البيت الذى تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة. حملت الحقيبة رغم ثقلها وسرت بها نحو البيت. غالبت توترى لدقة الموقف وخطورته، ثم وضعتها على المائدة أمام «ا»، وجلست مزهوا وأنا أشعر بأننى هجرت دنيا الناس إلى الأبد. وفتح «ا» الحقيبة فحال غطاؤها بينى وبين رؤية ما بداخلها. ودام فحصه ربع ساعة ثم أغلق الحقيبة وقال:

ـ أمضيت وقتا فى المقهى ناسيا أن الغريب يلفت الأنظار فى البلدان الصغيرة.

فخفق قلبى متوقعا عقوبة جديدة ولكنه قال:

- ولكنك عبرت البحر بسلام!

فشاع فى نفسى الرضا وامتلأت ثقة وإحساسا بالنصر، وقمت بأعمال قيمة على مدى غير قصير، فى وثبات متلاحقة حققت لى مركزا لا بأس به. واستدعانى «ا» ذات يوم فوجدته وحده بحجرة الاجتماع. أجلسنى فى أقرب مقعد إليه وقال لى:

- تقرر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة.

نظرت إليه مليا وأنا أغالب انفعالاتى ثم سألته فى حذر:

- أتسمح لى بسؤال أو أكثر؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسألته:

- ماذا يعنى أسرة جديدة؟

- أسرة الزميل الوحيد الذى أعرفه خارج أسرتنا ويدعى «ب»، وهى وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا فكرة لى عن عددها تنتهى بالجهاز الأعلى.

فداخلنى ارتياح وسألت:

- وما نوع العمل فى الأسرة الجديدة؟

- لا أدرى!

- من الذى رشحنى للأسرة الجديدة؟

فأجاب ببساطة:

- عملك:

وقام آخذا بيدى إلى حجرة صغيرة داخلية وهو يقول :

ـ دعنى أقدمك إلى رئيسك الجديد .

وجدناه جالسا ينتظر . ومن عجب أن طالعنى بصورة مناقضة تماما لتخيلى له . تصورته يفوق «ا» فى القوة والعملقة فإذا بى حيال شاب يكبرنى بأعوام جميل المحيا رقيق الحاشية يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته . كيف يرأس هذا الشاب أسرة هى أقرب فى موقعها من الرئيس الأعلى وعليها مهام ـ ولا شك ـ تجاوزها فى الشدة والعنف؟! . وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته فى شخصين تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل؟ . ترى متى يتاح لى مقابلة ذلك الرئيس العجيب الذى أقض مضاجع الشرطة وأثار الرأى العام لدرجة الهوس؟ . وتبادلت مع «ب» كلمات رقيقة فاستحوذ على حبى من اللحظات الأولى . ومضى بى فى سيارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة . سألته قبل أن ندخل :

ـ أعندك فكرة عن هذه الحديقة؟

فدخل مبتسما وهو يتأبط ذراعى . وسرعان ما احتوتنا مقصورة تكتنفها الخضرة والأزهار وتحبو فوقها أشعة الشمس فى مطلع شتاء لطيف . وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها وهى مكونة مثل أسرتى الأولى من خمس ولكنى عجبت لاختياره مكان الاجتماع فى حديقة سيئة السمعة لا يردها عادة إلا طلاب الحب المحرم . وقلت لعله داهية ذات قشرة ذهبية أو ماء تحت تبن . وشربنا الشاى بسرور وارتياح وهو يقول :

ـ أهلا بكم فى أسرتنا الجديدة .

وتفكر قليلا ثم واصل :

ـ لكل منكم سابقته المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذى أسلوب آخر، لا تنكر للماضى ولكننا نستكمله بأسلوب جديد كل الجدة، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة، مستهدفين فى النهاية غاية واحدة، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذى المظهر الخادع، فمثلكم مثل زارع يرمى فى الأرض ببذرة لا تكاد ترى، ولكنها ستنمو ذات يوم شجرة باسقة يلوذ بظلها المعذبون فى الأرض .

وصمت قليلا ثم قال :

ـ كانت مهمتكم السابقة التصدى للوجه القبيح والانهيال على قبحه باللكمات الصادقة، أما مهمتكم الجديدة فهى التغنى بالوجه الجميل المنشود، حلم اليوم وحقيقة الغد، ولكن أى أغان وأى ألحان؟! . . أغانى جديدة وألحان جديدة .

التمع فى الأعين حب استطلاع وهاج فقال :

ـ سأكون المؤلف والملحن وستكونون المغنين وسأضع فى كل حنجرة اللحن الذى يناسبها!

وضح فى الوجوه ما يشبه الذهول فقال :

ـ المهمة ظاهرها الترفيه ولكنها تنطوى على جدية فائقة ويحف بها الخطر من كل جانب . . فليوطن كل نفسه على التضحية .

وقلب عينيه فى وجوهنا متسائلا :

ـ هل من أسئلة؟

وفى الحال سألته :

ـ أنعتبر حديثك من المجاز والرمز؟

فأجاب ببساطة :

ـ بل إنه واقع وحقيقة . . .

ـ هل حقا تحفظنا ألحانا لننشدها؟

ـ بكل تأكيد .

ـ لكننا لسنا مغنين .

ـ كل فرد يستطيع أن يغنى فى حديقة عامة فيسمعه من يشاء أن يسمع .

ـ من ناحيتى لا أملك أى موهبة غنائية .

ـ لا يهم . العبرة باللحن أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد!

ـ قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرا لصفوه .

ـ ربما .

ـ وقد يسخر منا .

ـ ربما .

ـ وقد يعتدى علينا .

ـ ربما ، ولذلك لابد من توطين النفس على التضحية .

فقال زميل منفعلا :

ـ عملنا السابق أخف رغم عنفه .

فأجاب باسما :

ـ محتمل جدا .

وترددت قليلا ثم قلت :

ـ لدى سؤال وأخاف العقاب .

فقال «ب» بسرعة :

ـ لا موضع للعقاب فى قاموسنا .

فسألته :

ـ وما جدوى الأغانى والألحان والغناء؟

فقال بهدوء :

ـ أكبر مما تتخيل .

فسألت مندفعا بشجاعة جديدة :

ـ وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا؟

فقال باسما :

ـ لسنا إلا أدوات تنفيذ .

ثم بنبرة حماسية :

ـ اسمحوا لى أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنبيذ لنتعاهد على الحب والعمل ونحن فى أطيب حال .

وشرعنا فى الحال فى الحفظ والتدريب ، ثم فى العمل . وتعرضت لحرج ومتاعب لا نهاية لها . آمنت بأن عملى الجديد أشق من القديم رغم إحساسى بأننى أعمل فى جوقة موسيقية تحت إشراف شاعر وملحن فى آن . وعجبت لشأنه ، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذى يستعمل كل هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه . واستقرت فى وجدانى عبارة «ب» : «لا موضع للعقاب فى قاموسنا» ، فشجعنى ذلك على التخفيف من توتر أعصابى بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع ، رغم ما سمعت من إدانة لذلك ، وتحذير من المرأة التى هى أشد خطرا من الشرطة ، ورغم علمى المسبق بأن سلوكى لن يخفى عن رئيسى كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة . وسرت الفتاة بزيارتى سرورا أنسانى قلقى ووساوسى ، وهدانى إلى اكتشاف جانب رقيق فى قلبها لا يوجد عادة فى حومة الاحتراف . وقال لى «ب» فى أول اجتماع تلا مغامرتى :

ـ لا اعتراض لى على الحب .

فاشتعل وجهى بالحياء فقال :

ـ ولكنه دون ما رباط عبء على نقاء القلب .

ففطنت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار :

ـ ولكن . .

فقاطعنى :

ـ لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنت الحرب عليها!

ثم تحول إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة فى المسألة . وجاء زواجى من الفتاة مغامرة لا تقل فى خطورتها عن كبرى مغامراتى التى قمت بها وأنا عضو فى أسرة «ا» وفى ليلة الزفاف أتى «ب» دون دعوة وأهدانى قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر . وهمس فى أذنى وأنا معه آخر الليل .

ـ صن سرك فى أعماق قلبك وحده .

وواصلت حياتى ما بين الديوان والحدائق العامة وعش الزوجية فوق مطعم فلسطين . وكان الاجتماع لم يسبق بمثله إذ تخلف عنه لأول مرة أحد الزملاء . وأشار «ب» إلى المقعد الخالى وقال بأسى :

ـ ألقى القبض عليه .

فذهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا فقال :

ـ لعله تهاون فى الكتمان .

فقال زميل :

ـ قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة .

فقال :

ـ من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجل غير مسمى، وسنختار مكانا آخر. على أنى متيقن أنه سيتحدى الموت قبل أن يعترف!

رجعت إلى وحدتى الأولى. وانسربت إلى نفسى سموم الهواجس والمخاوف فتوقعت أن تصل إلى عنقى القبضة الحديدية فى أى وقت من ليل أو نهار. أجل كانت حياة كل زميل مجهولة تماما من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك، ولكن أى ضمان ثمة لذلك؟!. كانت أيام خوف وضياع. وصادفنى يوما أحد الزملاء فى ميدان العتبة. صافحنى خارقا تقاليدنا الثابتة وقال:

ـ معذرة، ثمة أخبار غاية فى الخطورة.

تولانى رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعينى دون لسانى فقال:

ـ قبضوا على رئيسنا «ب» نفسه!

فهتفت بفزع:

ـ من أين لك هذا؟

قال بغموض:

ـ شائعات تطايرت فى مكان عملى، والشائعة فى مكان عملى تعتبر خبرا!

تجهم وجهه حتى الظلمة وقال:

ـ ويقال إنه قتل وهو يستجوب!

هتفت :

ـ يا للفظاعة . .

فقال :

ـ وثمة همس على أن زميلنا المقبوض عليه أولا قد باع نفسه ودل على الرجل .

فقلت باضطراب :

ـ يجب أن نهرب .

فقال بحنق :

ـ لا خوف من ناحيته بعد فقد وجد فى السجن ميتا بالسم والتحقيق جار مع الجميع .

وتابعت الصحف ولكنها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا . تركنا فى الظلام ، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز ، وانطويت على سرى دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العزاء . واحتوتنى غربة وسط عالم معاد لا أدرى متى ينتشلنى اليأس من العذاب . واستدعانى رئيسى المباشر فى الديوان وسألنى :

ـ مالك؟ ، لست كعادتك ، أهو الزواج؟

فادعيت المرض فقال :

ـ قم فى اجازة تجنبا لمزيد من الأخطاء .

هربت من الديوان لأسقط بكليتى فى قبضة نفسى . أما زوجتى فأرادت أن تخفف عنى بعض ما لمست من اضطرابى فقالت :

ـ ستكون أبا يا حبيبى .

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكر طعمه أو رائحته . واتجه فكرى إلى رئيس الجهاز الأعلى ، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذى مزق جهازه ، كيف يصل ما انقطع ، وهل يعلم بما نعانى فى ضياعنا ، أو يفكر فى التخلص منا حفظا لأمن جماعته كما تخلص من زميلنا الخائن؟! . وانطوت الإجازة ، ورجعت إلى عملى ، وكلما مر يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شىء من الطمأنينة ، حتى بت اعتقد أنى راجع حتما إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية كفرد من ملايينها الذين يتعذبون ويتشكون ويتصبرون وينتظرون دون جدوى . وقلت لنفسى على سبيل التعزى لعل التفاهة فى النهاية أرحم من الخوف والضياع . وتعاقبت الأشهر حتى خرج وليدى الأول إلى الوجود ، ومضيت أنهمك فى مجريات الحياة اليومية . وذات صباح وعقب أبوتى بشهر . دق جرس الباب فذهبت زوجتى لترى الطارق ثم عادت لتقول بدهشة :

ـ يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين!

فذهبت بنفسى إلى الباب وسألته عما يريد فقال بصوت عريض ملىء :

ـ اسمح لى بخمس دقائق ، إنى قادم من أجل أبنك ربنا يحفظه بعين رعايته .

وجلسنا فى حجرة الاستقبال متواجهين. كان متوسط الطول متين البنيان أنيق المظهر، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر، قوى النظرات، بيده حقيبة وجاءت زوجتى مدفوعة بحب الاستطلاع فانتظر حتى جلست وقال:

- جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك، ومهمتى هى صميم عملى فنحن نتابع المواليد ونزور الأسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء، ويا بخت من يرى غده فى يومه.

- أيكلفنا ذلك ما لا نطيق؟

فأجاب بنبرة مشجعة:

- التأمين أصلا للذين لا يملكون، وهو درجات ولكل درجته، وإن بعد العسر يسرا.

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطانيها وهو يقول:

- إنها حاوية لكافة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله.

ونهض قائما فاصطحبته إلى الباب مودعا. ودس فى يدى ورقة، وصافحنى وهو يهمس:

- لا علاقة لى بشركة التأمين، أقرأ ما فى الورقة بعيدا عن عينى زوجتك، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر.

قال ذاك وذهب. وددت لو بقى دقيقة أخرى ليبل ريقى الجاف. هكذا بعثت فجأة واشتعلت روحى بالنار المقدسة من جديد. رجعت إلى الحياة ومعاناة الإحساس المضنى بحمل الأمانة.

وفى الموعد كنت فى بيت عتيق بالقلعة، يقع فى بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى. وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكونة من خمسة يرأسها «ج» (مندوب شركة الشرق)، أما الأربعة الآخرون فكان أثنان منهما ـ أنا أحدهما ـ من أسرة المرحوم «ب»، وواحد زاملته فى أسرة «ا» والرابع جديد لم تقع عليه عيناى من قبل. قال «ج»:

ـ مضى ما يقارب العام دون اتصال.

فقلت من فورى:

ـ عام محنة وعذاب.

أما زميل من أسرة «ب» فتساءل:

ـ هل عادت أسرتنا القديمة، أسرة «ب»، برياسة جديدة؟

فقال «ج»:

ـ أسرة «ب» موجودة برياسة جديدة أما هذه الأسرة فهى أسرة جديدة بالنسبة لكم.

وتنحنح ثم واصل حديثه:

ـ لم يمض العام هدرا، كلا، ولكنه مضى فى التحرى والمتابعة والمراقبة، كان على رئيسنا الأعلى ـ وهذا محض ظن منى ـ أن يطمئن إليكم وأن يسبر غور الشرطة وعيونها الشرهة، وأعتقد أنى تلقيت أوامره فى الوقت المناسب.

وقلت لنفسى إن هذا الرجل يعنى ما يقول وأنه قادر على ملء الفراغ بالثقة، وسرعان ما أحببته أما هو فقال:

ـ أهلا بكم فى أسرتكم الجديدة، هى الأخيرة أيضا، يليها مباشرة الجهاز الأعلى، ولا أخفى عنكم أنى أتلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه.

وأشعل سيجارة، آذنا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء، ثم قال:

ـ ولعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل، أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية فى الأسرتين السابقتين، فلا يجوز أن تهمل تجربة ناجحة أثبتت جدواها، فلا تنسوا ما تمرستم به فى أسرتكم الأولى وما تمرستم به فى أسرتكم الثانية، بالإضافة إلى ما سيجد، ولا تنسوا أن جميع الأسر وحدات فى أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد.

وقلب عينيه فى وجوهنا ثم واصل حديثه:

ـ وفى كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها، وهو أول مطلب أطالبكم به فى نطاق أسرتكم، ولكنكم مطالبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة وفاء بحق المنبع الذى منه نهلتم، ولو لم يبادلوا حبكم بحب مثله لجهلهم بوجود أسرتكم!

وتمهل قليلا ثم قال:

ـ وعملنا عجيب، ومحير إلا لمن يعقل. يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله، إلى الزهد فى كل شىء، والشكر على كل طيب، إلى حب الحياة وحب الموت!

وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول :

ـ وقد ألفتم الطاعة فيما مضى ، ومازلتم مطالبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر . ولكنكم مطالبون بالإبداع فيما عدا ذلك ، لا راحة ولا كسل ولا رجوع إلىّ إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة ، وقد تمرستم بكافة الأساليب ، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه ، ومصيركم رهن بفطنتكم .

ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصورت . فإذا به يقول :

ـ وما العاقبة؟ . . قد تكون الشرطة والعياذ بالله ، أو ميتة بطولية ، أو الترقى إلى مكتب الرياسة !

ولم أتمالك أن رفعت إصبعى فأذن لى بالكلام فقلت :

ـ تصورت أننى كلما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقل الاعتماد على النفس .

فقال بثقة :

ـ تصور خاطىء فرئيسنا حر ، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية .

فتماديت فى السؤال قائلا :

ـ لم لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة؟

فأجاب :

ـ لا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل . إلى ذلك فهو يتابع العمل بكل يقظة .

فتماديت أكثر قائلا :

ـ رغم ذلك فقد ترك «ب» لجلاديه يقتلونه!

فرنا إلى طويلا حتى عصرنى الندم ثم قال بصوت مهموس :

ـ لا أحد يملك أن يقطع برأى فى مصير زميلنا العزيز .

وتبادلنا نظرات هاتفة جياشة ولكنه قال بعجلة وحزم :

ـ آن لنا أن نرفع الجلسة التى ما قصدت بها إلا التعارف، وإلى اللقاء .

وتعاقبت الاجتماعات، وتتعابعت الأوامر، وكثرت الاجتهادات، وأنجزنا أعمالا كبارا، حتى لاح النصر فى الأفق مثل إشراقة الفجر . . وسقط كثيرون متلفعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالا وإصرارا، وجعل رئيسنا «ج» يقول لنا كلما اجتمعنا :

ـ حقا إنكم لرجال!

أو يقول :

ـ سيرحل الشر عما قليل فقد يئس من الأرض .

وكان ذا حلم يشجع على المناقشة فقلت له ذات مرة :

ـ أما آن لى أن ألقى الرئيس؟

فقطب فى غير غضب وسألنى فى عتاب :

ـ أيداخلك شك فى عدالة تقديرى؟

فقلت بسرعة وصدق :

ـ معاذ الله يا سيدى .

ـ ألا يكفيك ما أنت فى شغل به؟

فقلت بتوسل :

ـ أصبحت يا سيدى وكأننى من مجانين العشق .

فضحك ضحكة خفيفة وقال :

ـ من يدرى؟ لعلك رأيته وأنت لا تدرى .

فرمقته بذهول غير مصدق فقال :

ـ إنه ـ على مدى علمى ـ لا يعيش فى برج عاجى ، ولكنه يمارس حياته بين الناس ، وربما غشى الأماكن التى تجوبها للعمل أو الراحة .

فقلت منكرا :

ـ لو لمحته للفت نظرى بقوة شخصيته .

فقال باسما :

ـ ما أكثر الأشياء الجديرة بجذب الأنظار لولا انغماسنا فى الأمور العابرة .

رددت قوله على مسمع قلبى طويلا ، وكدت أشغل به عن كل شىء ، لولا نداء العمل الذى لا يكف عن الصراخ .

* * *

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتى انفجر رأى لم يقنع بكافة الإنجازات التى تمت وتلهف على النصر النهائى. من أى أسرة انبثق ذلك الرأى؟ . . أم هل انبثق فى الأسر الثلاث فى وقت واحد؟ . . بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عام تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر فى الخطة من أولها إلى آخرها. ولما لم تلق الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرد الأول فى الجماعة. فقد اجتمع ممثلون عن الأسر، وتسابقوا فى عرض تصوراتهم الجديدة. واحتدم النقاش حتى انتهى بكل فريق إلى التحيز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناداة العامة بالانضواء تحت لوائها. وزلت القدم زلة أخرى فراح كل فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى. وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم، ثم انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدى والأرجل، وتمزقت الوحدة، وانعزل الناس الطيبون وهم يذرفون الدمع، متوقعين أن تنقض الشرطة فى الوقت المناسب فتقوض البناء من أساسه. ولم أصدق ما أرى وما أسمع، وقطع الأسى قلبى، وهرعت إلى رب أسرتى وقلت له:

ـ ما حدث لا يصدق.

فقال بحزن:

ـ هذه الأمور تحدث.

فتساءلت بحسرة:

ـ أبعد مشارفة النصر نقع فى اليأس؟

فهتف بحدة :

ـ لا تلمس اليأس بلسانك!

ـ أما يزال لديك أمل؟

فقال بنبرة قوية واضحة :

ـ انتظر، كلا، لا تنتظر. اندفع بلا تردد لصنع ما هو صادق وطيب، ما هو إلا امتحان وككل امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل.

وتلقيت كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب.